جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

نسق القيم في المجتمع والتغير الاجتماعي

اللواء الدكتور : حسن الساعاتي

الرياض

1408 هـ - 1988 م

نسق القيم في المجتمع والتغير الاجتماعي

الدكتور حسن الساعاتي(*)

أولاً: التمهيـــــد:

من الظواهر الاجتماعية التي شغلت بال المفكرين فلاسفة وعلماء اختباريين بين إمبيريقيين منذ القدم وعلى مر العصور حتى عصرنا الحاضر، تلك الظواهـر المتعلقة بـالسلوك البشري الاجتماعي، في ألوان شتى من العادات الاجتماعية، التي تتبلور في أشكال مختلفة من الأعراف والتقاليد وأساليب التعامل بين الناس التي فطن العرب اليها منذ عصور الجاهلية وأطلقوا عليها اسمين واضحيّ الدلالة وهما (شيم) و (شمائل) بمعنى الأخلاق[1] أي مجموعة الأوامر والنواهي التي يورثها السلف الخلف، لينسجوا على منوالهم ويتخلقوا بأخلاقهم، فيكونوا مثلهم ولا يشذون عنهم، هذه المجموعات الأخلاقية التي تشتمل على شيم وشمائل المجموعات والجماعات البشرية، وتميزها بعضها عن بعض، وتكون منسقة المحتوى معقولة المضمون لمن يعتنقونها، وهي ما يطلق عليها في علم الاجتماع وعلم الانسان وعلم النفس الاجتماعي، وعلم الثقافة على وجه الخصوص، أنساق السلوك الاجتماعي والتعامل البشري.

(*) أستاذ علم الاجتماع في جامعة عين شمس. القاهرة.

١ ـ أنظر: المعجم الوسيط، القاهرة. مجمع اللغة العربية، ١٩٦١م. الجزء الأول، مادة شمل. ص: ٤٩٧، ٥٠٦

والنسق عبارة عن مجموعة من المصالح والأنشطة المرتبطة بعضها بالبعض الآخر، تنظم تفاصيلها ومظاهرها وفق ترتيب منسق يتميز بأداء منسجم في وحدة متكاملة، ويمكن تصور النسق على أنه نموذج من أفكار عامة، يستخدم لتيسير بحث الظواهر المركبة وتحليلها، على أساس أنه في واقع الأمر تجريد من نسق أكبر، بينما هو في الوقت نفسه يحتوي على أنساق صغرى، كما هي الحال في الأنساق الاجتماعية على وجه الخصوص، وهكذا تكون الأنساق في الحقيقة غير ثابتة، وكذلك غير متوازنة توازنا تاما، كما أنها عاجزة عن التنبؤ الدقيق، ولكنها على الرغم من ذلك مفيدة، لتصنيف الظواهر الاجتماعية وتمييز بعضها عن بعض، كوحدات لكل منها ما تختص به من سمات تحدد طبيعتها ومظاهرها بشكل بارز، وعلى هذا الأساس حددت أنساق شتى كالنسق القرابي، والنسق الأسري، والنسق التربوي، والنسق الاقتصادي، والنسق الأمني، والنسق القيمي، الذي يتكون من مجموعة شاملة للاتجاهات والمعتقدات العميقة الجذور التي توجه استجابات الأفراد اليومية العادية في شتى الظروف والمناسبات.

ويرجع عدم ثبات أو عدم استقرار الأنساق، وعدم توازنها توازنا تاما، وعجزها عن التنبؤ المضبوط، الى ظاهرتين من أهم الظواهر في المجتمع، وهما ظاهرتا التغير الاجتماعي والتغير الثقافي المرتبطتان كل منهما بالأخرى، باعتبار انهما تؤثران في العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجموعات والجماعات والهيئات والأنساق الاجتماعية في كل مجتمع من المجتمعات ويعني التغير الاجتماعي أي تعديلات في التنظيم الاجتماعي لأي مجتمع، في أي من نظمه الاجتماعية أو انماط الأدوار الاجتماعية فيه ويشمل التغير الاجتماعي التغيرات المختلفة التي تطرأ على السلوك الاجتماعي الذي يأخذ أشكال العادات الاجتماعية

والأعراف والتقاليد، وذلك في نطاق الأنساق الاجتماعية الكبرى، كالنسق الأسري والنسق التربوي والنسق الأمني، والنسق الاقتصادي، وليس في اطار المجموعات الصغيرة، أما التغير الثقافي فيعني أي تغير في العناصر المادية والعناصر غير المادية، أي المعنوية أو الروحية من الثقافة، سواء بالاضافة أو الحذف أو التعويل في السمات أو المركبات الثقافية لأي عنصر من هذه العناصر، لوسائل المواصلات والاتصال، وتغذية المعداد (الحاسب الآلي) بالمعلومات لخزنها، والاستنباط الابتكاري منها بواسطة فنياته Techniques الذاتية، والأفكار والمعتقدات والقيم وما ينتج عن دوافعها النفسية من ألوان من السلوك تتبلور في عادات اجتماعية عامة متكررة، تتخذ أشكالا شتى من الأعراف والتقاليد والبدع، وأساليب محددة من التعامل بين أفراد المجموعات والجماعات والهيئات والمؤسسات وفق نظم اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية وأخلاقية تتميز بها المجتمعات بعضها عن بعض.

ثانياً: القيم وأنساقها:

منذ أن اهتم علماء الاجتماع، في أوائل القرن العشرين، بموضوع القيم، ظهرت مؤلفات غربية كثيرة تبحثها من حيث تأثيرها في النظم الاجتماعية المختلفة، وفق انفعالات الأفراد في تعاملهم بعضهم مع بعض، وحرصهم على كسب منافع شخصية، معنوية ومادية، تجعل لهم وزنا ومكانة وأهمية في المجموعات والجماعات التي ينتمون اليها وتنشأ بينه وبين أفرادها علاقات اجتماعية شتى. وفيما يلي دراسة مختصرة لأهم الموضوعات المتعلقة بالقيم.

أ ـ القيم مفاهيم عاطفية:

ليس بعيدا عن الصواب القول بأن القيم من منظور تحليلي تفسيري، مفاهيم عاطفية، قائمة على أسس نفسية اجتماعية مكتسبة من التراث الاجتماعي المختزن من خبرات الماضي في زمان ومكان معينين ومن الثقافة السائدة في الحاضر، عن طريق التنشئة الاجتماعية في مجموعات الأسرة وثلة الأقران وزمرة الرفاق في العمل، وفي الجماعات الريفية والحضرية، كالحي في المدينة، وفي المدرسة، والنادي وفي المؤسسات الانتاجية والهيئات الرسمية والخاصة، وهكذا تصبح القيم أفكارا اعتقادية قوية متعلقة بفائدة أشياء معينة في الحياة الاجتماعية وقد تكون الفائدة صحة جسمية او نفسية، أو توقداً في الذكاء، أو صفاء في النفس، أو لذة ونشوة، أو بسطة في الرزق، أو حسن سمعة أو منزلة رفيعة، أو نعيما في الآخرة أو غير ذلك من المنافع الشخصية التي تكسب الفرد احتراما يجعل الناس يهتمون به ويقدرونه، ولذلك كان من أعز الدعوات وأغلاها، دعاء الأم لابنها بقولها: «ربنا يعلي مقدارك» ربنا يعلي مراتبك، فعلو المقدار وعلو المرتبة يجران عليه منافع كثيرة، لما يضفيانه عليه من صفات تجعل له قيمة تحط من قدر الفرد المحروم منها، فلا يحترمه أو يقدره أحد ممن يتعامل معهم.

ب ـ نسبة القيم:

يتبين مما سبق أن القيم ذات معان حساسة في أذهان الأفراد في المجموعات أو الجماعات أو المجتمع، توحد بينهم من جهة، وتميزهم عن غيرهم من أفراد المجموعات والجماعات والمجتمعات الأخرى من جهة ثانية، ولذلك استخلص العرب بقوة بصيرتهم من هذه

الظاهرة النفسية ـ الاجتماعية، مثلهم الشهير (الناس اخوان وشتى في الشيم)[1] ويمكن في معرض الحديث عن القيم، تعديل هذا المثل ليصبح أكثر تناسبا فيقال: «الناس اخوان وشتى في القيم» وفي هذه الحال يكون معنى القيم، هو معنى الشيم والشمائل، وهو الأخلاق المسلكية لكل فئة من الناس، وكل شعب سن الشعوب، وفي زمانهم ومكانهم، ولئن دل ذلك على شيء فانما يدل على نسبية القيم، وهذا ما عبر عنه المثل الانجليزي خير تعبير بقوله: (إن رذائل بيكاديللي هي فضائل بيرو).

وتشرحه الدكتورة فوزية دياب في بحثها العربي الفريد عن القيم والعادات الاجتماعية بقولها: (فالحرية الجنسية التي عرف بها حي بيكاديللي في لندن وسمي من أجلها حي الرذيلة، هي السلوك الشائع المعياري الذي يجب اتباعه في جمهورية بيرو بأمريكا الجنوبية) وتعلق على ذلك بقولها: وهكذا نجد أن كل مجتمع يضع لنفسه معايير سلوكه، وتصرفات الأفراد في هذا المجتمع تعكس هذه المعايير التي تقوم عليها، ولذلك فان الشخصية السوية لا يمكن أن تعرف ولا يمكن أن يحكم عليها الا بعلاقتها بالمحيط الثقافي الذي تعيش فيه[2] وتمهيدا لهذه الفكرة كتبت تقول:

(ان القيم ذات طبيعة معيارية. معناه أنها تختلف باختلاف الجماعات والنظم السائدة فيها، واذا قلنا ان القيم تعكس معايير السلوك أو مُثُل السلوك، فليس ذلك بالمعنى الفلسفي المثالي

---

١ الميداني، أبو الفضل أحمد بن أحمد النيسابوري، مجمع الأمثال. القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣١٠هـ. ١٩٨٢م

٢ ـ فوزية دياب. القيم والعادات الاجتماعية مع بحث ميداني لبعض العادات الاجتماعية ط ٢ بيروت. دار النهضة العربية: ١٩٨٠م. ص: ٥٥.

الميتافيزيقي، وانما بالمعنى الوضعي الاجتماعي الذي تعبر عنه (الفضيلة الاجتماعية) التي تتلخص في أن يقوم الفرد بواجبه، ويحترم ممارسات مجتمعه وعاداته

ولما كان الأفراد يهتمون أكثر بالقيم والعادات الاجتماعية السائدة في المجموعات والجماعات التي ينتمون اليها ويتعاملون: كل منهم مع الآخرين فيها، ويجدون أنفسهم مجبرين على الانصياع اليها والعمل وفقا لما تمليه من ألوان السلوك، فانهم يتمسكون بما أشربت نفوسهم منها ويتصرفون وفقا لما هو سائد ويجري العمل في هذه المجموعات والجماعات، كما في حالات تعاطي المخدرات والمنشطات، والأخذ بالثأر، والاباحية الجنسية، والشذوذ الجنسي، حتى ولو كان ذلك مجرّما بصورة عامة، ويعد خروجا عن النظام العام في المجتمع وتعبر عن ذلك الدكتورة سامية حسن الساعاتي بمقولتها الملغزة: «ان بعض الناس قد يكونون غير متوافقين، لأنهم متوافقون في توافق غير متوافق»[1] وتشرح ذلك بقولها: فمن يرتكبون جرائم القتل للثأر يكونون غير متوافقين في سلوكهم مع النظام العام للمجتمع، ولكن عدم توافقهم هذا متوافق مع القيم والمعايير السائدة في أسرهم وقراهم، غير المتوافقة مع القيم والمعايير السائدة في المجتمع، والتي تكون ثقافته الكلية المنسجمة مع النظام العام، وتجرم الأخذ بالثأر وتكافحه ولا يستطيع الأفراد أن يكونوا غير متوافقين مع الأسرة والجماعة التي يعيشون فيها ويتعاملون مع أفرادها في اطار القيم والمعايير السائدة بينهم، لأنهم ان فعلوا ذلك، فسوف يعرضون أنفسهم لعقاب الأسرة والجماعة[2] وعلى هذا الأساس تصبح

١ ، ٢ سامية حسن الساعاتي. الجريمة والمجتمع. بحوث في علم الاجتماع الجنائي. مكتبة الانجلو المصرية: القاهرة. ١٩٨٢م. ص: ١٢٠، ١٢١

القيم المتعلقة بالأخذ بالثأر ايجابية ومرغوباً فيها، في محيط مجموعة الأسرة وجماعة القرية، لأنها تتوافق مع ثقافتها الفرعية الخاصة التي تحبذ بل تحض على الأخذ بالثأر ولكنها في الوقت نفسه تكون سلبية وغير مرغوب فيها ومحتقرة، في محيط المجتمع ككل ومن وجهة نظر النظام العام فيه. فالقيمة الايجابية هي التي تضفي على المتمسك بها احتراما يكسبه قيمة ومكانة عالية، والقيمة السلبية هي التي تجعل المتمسك بها غير محترم، لأن سلوكه يعد من وجهة نظر من يتعاملون معه «قلة قيمة» أي محتقراً!

جـ - الانسان حيوان مقوم:

في ضوء ما ذكر آنفا يمكن القول بأن الانسان حيون مقوم، مادام يعيش مع آخرين، يهتم بأن يكون سلوكه في أقواله وأفعاله مقبولا لديهم، فيحوز رضاهم ويكسب تقديرهم ويجعلهم يعترفون بقيمته وأهميته بينهم. هذا الشعور القوي بأن يكون للانسان أهمية وقيمة بين من يتعاملون معه هو الذي يجعل لعصبة الأقران الفاسدة سيطرة هائلة على كل فرد من أفرادها، حيث يجاري كل منهم الآخرين في سلوكهم مهما كان شاذا وجانحا وخارجا على الآداب الاجتماعية الوضعية والأخلاق الشرعية السماوية. وبتعمق مقولة أن الإنسان حيوان مقوّم يتضح أنه، طالما يعاشر غيره يفكر تفكيرا ارادياً في الأشياء والأفعال والأقوال التي يختارها من بين بدائل مختلفة عديدة لتجعل له قيمة كبيرة بين من يعاشرهم وتكسبه احترامهم وتقديرهم واعترافهم الكامل به.

د - سلم القيم:

يتبين من ذلك أن القيم، لكثرتها وتنوعها، تصبح مجالا فسيحا للاختيار ولما كان الاختيار يدفع الى المفاضلة والايثار فانه قد

أصبح من اللازم وجود ما اصطلح العلماء على تسميته (سلم القيم) الذي ترتب فيه القيم بعضها فوق بعض من حيث أهميتها في نظر الفرد نفسه، وفي اطار المجموعات والجماعات التي تجري فيها عملية المعاشرة بينه وبين الأفراد الآخرين، ومن الأمثلة القوية الدلالة على أهمية سلم القيم، نظام الخطبة الذي ترتب فيه مواصفات الزوجة المناسبة وفق الاختيار من بين متغيرات: الجمال، والثراء، والأصل، والاصلاح، والعلم، والسند، وترتب فيه مواصفات الزوج الملائم، وفق الاختيار من بين متغيرات: الرجولة، العلم، المهنة، الأصل، والاصلاح. ومع ذلك. فانه لما لاشك فيه أن قيم متغيرات مواصفات الزوجة المناسبة وقيم متغيرات مواصفات الزوج الملائم، تتغير بتغير الزمان والمكان وما يحدث فيهما لبني الانسان من تأثير وتأثر بالالهامات المبدعة والايحاءات الأصيلة، والتأملات الذكية، والتصورات المبتكرة، والتوسمات الحدسية، وذلك نتيجة ما يحدث في المجموعات والجماعات، بل المجتمع أيضا ككل من تغيرات ذات أشكال مختلفة بعضها مادي محسوس وبعضها الآخر معنوي كامن في الأذهان، ولكنه قوي الفاعلية شديد الأثر، تبعا لما يتمتع به رواد التغيير من شخصية قوية، قد تصل الى درجة الكارزمية أي الزعامة الملهمة، وتبعا لوسائل الاتصال التي يستخدمونها ودرجة انتشارها، ومدى الثقة فيما تنشره، وتبعا كذلك لما يجد في الحياة الاجتماعية من عوامل جديدة، اقتصادية واجتماعية وسياسية، تمارس ضغطا قويا على الناس، فتبلبل أفكارهم، وتزعزع ثقتهم فيما توارثوه عن أسلافهم، وتدفعهم الى التنازل عنها شيئا فشيئا على استيحاء أو نبذها دفعة واحدة في جرأة قوية وتحدّ ظاهر

هـ ـ القيم المادية والقيم الروحية:

القيم المادية مفاهيم متبلورة حول الأشياء المادية، التي يسعى الانسان للحصول عليها، كالمال والمسكن والأثاث والغذاء والكساء وأدوات الاتصال والتنقل، والشخص الذي يعاشره ويشترك معه في التنعم بهذه الأشياء كلها، باعتبارها ملذات تشتهيها النفس وتتوق اليها، بقدر ما نسجت حولها من انفعالات بالسرور، كونت عواطف امتدت جذورها في أعماق النفس البشرية وأصبحت قيما مادية س حيث اتصالها بالكائنات جمادا أو حيوانا أو انسانا، وقد لخص القرآن الكريم جل هذه القيم المادية في قوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا﴾[1] وكل هذه قيم مادية لا غنى عنها، فأكثرها ضروري لحياة البشر، ولكنها يجب أن يسعى الى الحصول عليها في حدود الاعتدال، ويقتضي ذلك أن يخضعها الانسان لارادته وبذلك يستطيع السيطرة على نفسه بتغليب قيم روحية من الاعتدال والقناعة، والرضا، وبخاصة أنها قيم قصيرة العمر لا تدوم طويلا فهي تتغير ويضعف الطلب عليها بنضج الانسان وكبر سنه وكثرة خبراته التي تكسب العقلاء حكما واتزانا

والقيم المعنوية أو الروحية هي تلك التي تتبلور حول أشياء غير محسوسة، لكنها مستبصرة بالعقل وذات تأثير داخلي، شعوري، يثير انفعالات ومنتظمة، تصبح عواطف قوية في صورة مفاهيم ذات معان تجذب الانسان اليها، وتجعله يتمسك ويهتدي بها في حياته الاجتماعية ومعاشرته غيره من الناس في مختلف المجموعات وشتى

١ ـ سورة آل عمران. الآية: ١٤

الجماعات في المجتمع. ولعل أكثر القيم الروحية شيوعا في الأعم والأغلب من المجتمعات القيم المتعلقة بمفاهيم دينية كالتوحيد، والتسليم لله، والتقوى والصلاح، والاستغاثة، والعدل والاحسان، والحياء والعفة، والصبر وكون هذه القيم جاذبة ويتمسك بها يجعلها قيما ايجابية تجمع الناس على الخير، ولذلك ركزت الأديان السماوية عليها، وبذلك كتب لها البقاء والدوام، وتقابلها قيم شريرة منفرة سلبية، تعمل على الفرقة بين البشر وبذر الكراهية بينهم بالفحشاء، والمنكر والبغي، والظلم.

وهناك قيم معنوية خاصة بالعلاقات الاجتماعية الناجمة عن المعاشرة بين الناس، كالصداقة والاخاء والمحبة، والشرف والطاعة والتعاون، والتكافل والولاء، والايثار، والنصر وهذه كلها قيم ايجابية تجمع الناس على الخير. وتقابلها قيم اجتماعية سلبية فاسدة تنفر الناس بعضهم ببعض، وتبذر بذور الفرقة والتباغض بينهم كالعدوان، والغل، والحسد، والاساءة، والبخل، والأثرة، والطمع، والجشع، والفجور، والغيبة، والنميمة هذه القيم الايجابية والقيم السلبية قيم معنوية نفسية وليست روحية، وانما هي تتعلق بالأخلاق المسلكية، ولذلك سميت قيما أخلاقية.

و - أنساق القيم :

يمكن تعريف نسق القيم بأنه تقويم مقبول بصورة عامة، لأنماط العلاقات بين الأشخاص، كالأمانة وأنماط الانجاز، كالشجاعة وانماط الغايات والأهداف كالنجاح وأنماط طرز الارضاء المستحسنة، كتلك الخاصة بالجمال، وبالنظام، وبالتنسيق، وبالكفاءة، وأنماط المثل الاجتماعية كالمكانة، والاحترام، والقوة والمهارة وهذه القيم

كلها قد ذكرت على سبيل المثال ـ لا الحصر ـ ويتضح فيها أن أنساق القيم عبارة عن مؤشرات كامنة في وعي الأفراد تهديهم في حياتهم الى مافيه خيرهم وسعادتهم. فهي تشتمل على ما يطمحون اليه من آمال. ومثل وأخلاق، يجزيهم المجتمع عنها خير الجزاء. وبناء على ذلك تتصدر أنساق القيم في أية ثقافة معالمها البارزة. وهي أيضا تظهر أعنف الوان التضاد بين الأفراد والمجموعات والجماعات والفئات في المجتمع، عندما يتصادمون بخصوص ما تحتوي عليه من قيم يحترمها ويتمسك بها فريق منهم، ويحتقرها وينبذها فريق آخر، ولا يأبه ولا يعيها فريق ثالث[1]

ويعطينا القرآن الكريم نسقا ما للقيم، التي تكون النظام العام الذي ينظم المجتمع الاسلامي، وذلك في أكثر من سورة من سوره. يسير الناس على هديها فيسعدون في الدنيا والآخرة، ففي سورة الاسراء يوجد نسق قيم متكامل من الأوامر والنواهي المحددة الآتية:

﴿وقضى ربك ألاّ تعبدوا الاّ اياه وبالوالدين احسانا﴾. ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا﴾ ﴿ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، ان قتلهم كان خطئا كبيرا﴾. ﴿ولاتقربوا الزنى انه كان فاحشة وساء سبيلا﴾. ﴿ولاتقتلوا النفس التي حرم الله الاّ بالحق، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا﴾. ﴿ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ

---

١ ـ أنظر: Abram Kardiner, "Values in Alorese Society", in David C. McClelland (ed.) Studies in Motivation, New York, Appleton-Century Crofts, Inc., 1955, P. 278.

أشده، وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا﴾. ﴿وأوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا * ولا تقف ماليس لك به علم * إن السمع والبصر والفؤاد كل أؤلئك كان عنه مسئولا﴾ ﴿ولا تمش في الأرض مرحا * انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا * كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها * ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله اله آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا﴾[1]

وفي كل من سورة النور، ولقمان، والمعارج[2] نسق للأخلاق المسلكية الشخصية جمع الله تعالى فيه قيما تجعل الفرد محترما بين الأفراد الآخرين في الجماعة الاجتماعية. وتضمن لهم جميعا الأمان والاستقرار وتؤلف بين قلوبهم، وتقف حائلا بينهم وبين شهواتهم التي تفسد حياتهم، اذا ترك لها العنان. هذا هو نسق القيم الصالحة الذي يسعد الجماعة والمجتمع.

والقرآن الكريم يرسم أيضا صورا لأنساق قيم فاسدة، تمسك بها أقوام وعدوها مصدر سعادتهم، بينما هي قيم فاسدة تجلب الشقاء وتشيع البغضاء انها أنساق قيم مجتمعات كانت في أزمنتها مزدهرة ولكنها انهارت ودمرت بسبب قيمها التي جمعت بين عدم التقوى والتعالي والتكبر والبطش، والشذوذ الجنسي، وغش الناس مكيالا وميزانا وبيعا وشراء، والفجور في الخصومة، وخيانة الأمانة، والغدر بعد العهد. انها أنساق قيم قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم

---

١ سورة الاسراء الآيات: (٢٣، ٢٦. ٢٩، ٣١، ٣٩).

٢ ـ سورة النور الآيات: (٢٧، ٣٣، ٥٨، ٦١) و سورة لقمان، الآيات (١٣ ١٩) وسورة المعارج. الآيات ٢٢ ـ ٣٥

ابراهيم، وقوم لوط، وقوم فروعون، وقوم شعيب، وكلهم قد استحبوا العمى على الهدى، ورفضوا رسالات الله التي أرسل بها رسله اليهم لاخراجهم من الظلمات الى النور، وعتوا عتواً كبيراً فدمروا تدميرا[1] ولإيراد هذه الأنساق من القيم السلبية المفرقة الفاسدة لهذه الأقوام التاريخية، التي عاشت حقبا من الزمان، ثم بادت كل منها بأوان، حكمة بالغة ذات مقاصد عقلية برهانية اقناعية، أولها التفكير وثانيها التذكر، وثالثها التعقل ورابعها التدبر، وخامسها التوسم أي استنباط النتيجة، لتصبح قاعدة يعتبر بها أولو الألباب، في حياتهم الاجتماعية ومعاشرتهم بعضهم بعضا، هذا هو المنطق القرآني الذي يخاطب العقل، الذي ميز الله به البشر عن سائر الكائنات الحية، ولكن على الرغم من الكتب السماوية الكريمة، وما فيها من العلم بشتى شئون الحياة، على مر الزمان واختلاف العصور والمكان، فقد ضل أكبر الناس، لأنهم اتبعوا أهواءهم، وجعلوا منها هاديهم ومرشدهم ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[2] والذي يحدث على مر الزمان واختلاف العصور والبقاع، هو التغير الاجتماعي والثقافي، وتغير القيم في نفوس الناس، وهذا هو موضوع الفقرات التالية:

ثالثاً: التغير الاجتماعي والثقافي والقيمي:

انها لحقيقة علمية ثابتة ان كل شيء في الحياة، خاضع للتغير وقابل له وسائر فيه، أفراد أو مجموعات وجماعات ومجتمعات، وبيئة

---

١ سورة نوح. الآيات: ٥٩ ـ ١٣٦ وسورة يونس. الآيات: ٧١ ـ ٩١ وسورة هود. الآيات: ٢٥ ـ ١٠٠ وسورة الشعراء. الآيات: ١٠ ١٨٩ وسورة العنكبوت. الآيات: ١٤ ـ ٤٠. وسورة القمر الآيات: ٩ ٤٢.

٢ ـ سورة القصص. الآية: ٥٠.

طبيعية بما فيها من ماء وجماد، وحيوان ونبات، يحدث ذلك كله في زمان اجتماعي دائم الامتداد في المستقبل، ومستمر الاتصال في حلقات من شتى التفاعلات الجارية بين البشر بعضهم وبعض في شتى أشكال تجمعاتهم، وبين البشر والماء والجماد والحيوان والنبات، في مختلف الأحوال ما بين وجود وعدم، وكثرة وقلة، وحركة في الحل والترحال، والتنقل والاستقرار، وللعقل البشري فاعلياته في كل هذه الأمور يكشف ويخترع وينكر ويبتدع، مدفوعا بحاجاته الضرورية لبقائه ورغباته الكمالية اشباعا لشهواته مجبرا في بعض هذه الأنشطة بفطرته وتكوينه، ومخيراً في بعضها الآخر، حيث يقوده الحدس والالهام. والبشر في ذلك كله مختلفون تبعا لتفاوتهم في القدرات والمواهب وفيما يمرون من خبرات وتجارب، وما يحيط بهم من شتى الظروف المبسطة والمتدرجة تركيبا وتعقيدا وتاريخ البشر شاهد على ذلك. فهو صفحات الزمان، وسجل ما يحدث فيه لسائر المخلوقات وعلى رأسها الانسان.

ذلك ما لفت نظر عبدالرحمن بن خلدون وجعله في السبعينيات من القرن الرابع عشر، يتجه الى تاريخ العرب والعجم والبربر، يتعمقه ويستخرج العبر، أي النظريات والقوانين الاجتماعية، من المعاشرة بين البشر عبر الزمن وفي مختلف الأقاليم والمناطق والبقاع، فاستطاع أن يضع علما جديدا يعين على فهم الأحداث والوقائع وكشف ماهياتها وكيفياتها وعللها وأسبابها، وليمكن الدارس من صياغة قراراته الاجتماعية في ضوئها وبهديها، ليس في حاضره فحسب، وانما في مستقبله كذلك، على أساس قدرة هذا العلم الجديد على التنبؤ بما يمكن أن يحدث في الآتي من الزمان. ولذلك كان التغير الاجتماعي أو تبدل الأحوال على حد تعبيره، الموضوع

المحوري الذي عني به اشد عناية في مقدمته الشهيرة. ومن ملاحظاته الدقيقة وتوجيهاته السديدة في ذلك قوله: «ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال، بتبدل الأعصار ومرور الأيام، وهو داء دوي شديد الخفاء، اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة، فلا يكاد يفطن له الا الآحاد من أهل الخليقة، وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، انما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال الى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والامصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول»[1]

ويحاول ابن خلدون البحث عن أسباب التغير الاجتماعي على أساس أدلة التاريخ وشواهده من الأحداث والوقائع، فيصل الى نتيجة يسجلها بقوله: والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه، كما يقال في الأمثال الحكمية «الناس على دين الملك». وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والأمر، فلابد وأن يفزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك، فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول. فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزجت من عوائدهم وعوائدها، خالفت أيضا بعض الشيء وكانت للأولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة. فما دامت الأمم والأجيال تتعاقب في الملك والسلطان، لا تزال المخالفة في العوائد والأحوال واقعة[2] وكما ورد

---

١ ـ مقدمة العلامة ابن خلدون. المكتبة التجارية الكبرى: القاهرة بدون تاريخ. ص: ٢٨

٢ ـ المصدر نفسه ص: ٢٩

ذكره آنفا، من أن القيم هي دوافع السلوك الفردي والسلوك الجمعي، وان السلوك اذا ما تكرر صار عادة فردية أو عادة اجتماعية، فان كلمة عوائد الواردة في هذا النص انما تدل ايضا على القيم الاجتماعية والمقصود من أهل الملك والسلطان في النص ذاته، ليس من بيدهم مقاليد الحكم فحسب، بل أيضا أهل العلم وأصحاب الرأي، الذين لهم سلطان قوي في التأثير على جماهير الشعب وهم المتفوقون بلغة العصر الحاضر، الذين يستطيعون باستخدام وسائل الاعلام المختلفة، وبواسطة الكلمة المقروءة والمسموعة والمرئيات المتنوعة، وبالمثابرة على ذلك يوما بعد يوم، غسل مخ العامة واقتلاع كثير من القيم سن نفوسهم وغرس ما يرضونه من قيم أخرى محلها، قد تكون ايجابية صالحة، أو تكون سلبية فاسدة، وذلك وفق مقاصد الدعاة ومصادر الدعوة، وما اذا كانت نابعة من يقظة مبدعة وارادة مؤمنة تبتغي الخير العام، أم صادرة عن أفكار وقيم وافدة غريبة ذات مقاصد خبيثة، وهذا يعرف بالانتشار الثقافي الذي يعمق التبعية الفكرية، التي تمهد الطريق أمام الغزو الثقافي الأجنبي، على أيدي المثقفين المبهورين بالأفكار والقيم والماديات الغربية

ولوسائل الاعلام في العصر الحاضر دور بارز في نشر الثقافة المعاصرة الأصيلة والدخيلة، بعناصرها المادية، وعناصرها غير المادية، أي المعنوية، ولقد أصبحت الكلمة المقروءة، بعد انتشار التعليم في الدول العربية من أهم المؤثرات في نشر العناصر المعنوية للثقافة، وبخاصة الأفكار والقيم والمعتقدات ذلك لأنها بالمقارنة بالصوت والصورة، أدوم وجودا وأطول أثرا، فضلا عن اطلاقها العنان للذهن ليفكر ويتصور، وفق مكوناته الشعورية واللاشعورية

وكمثال لتسريب الأفكار والقيم الغربية، المتعارضة، تماما مع القيم العربية الاسلامية فقال: «دوروتياكويلر» في صحيفة ستتجارترنساينونج الألمانية وعنوانه بالعربية «مستقلات ونحب ذلك» الذي ترجم ونشر في احدى الجرائد الانجليزية التي تصدر في وطننا العربي وقد جاء فيها ما نصه:

أربع نساء أعزاب ذكرن لي لماذا تفضلن المعيشة وحيدات والأسباب التي ذكرنها متشابهة، والرأي التقليدي هو أن النساء يجب ان يبتهجن بالأمومة وسعادة الحياة الأسرية، وأنه ينظر الى النساء والأعزاب بشيء من الشك والرأي التقليدي أيضا أنه لابد من وجود شيء خاطىء لدى صغار السن من الجنسين، الذين يبقون أعزابا.. واذا لم يكن ذلك كذلك، فانهم يقلقون من التورط في علاقات دائمة. والأعزاب ذوو سمعة سيئة في وحدتهم وقضاء عطلتهم، وفي حياتهم الجنسية نقطة ضعف. ولكن العزبة لكثير من الناس حالة سارة، على الرغم س عدم وجود احصاءات تثبت ذلك والنساء الآن في عقودهن الثالثة والرابعة، أول جيل يبدأ هذه الطريقة الجديدة والبديلة س الحياة[٢] وتورد الكاتبة حالات أربع نساء أعزاب، لكل منهن خدين يزورها في مسكنها ليقضي معها عطلة نهاية الأسبوع، بدون قيود الزواج الرسمي، الذي ترفضه رفضا قاطعا، وتنفر من فكرة ما يتمخض عنه من ذرية تقيد حريتها، وتهدد استقرارها في عملها، الذي يحقق ذاتها ويشعرها بمتعة استقلالها عن الرجل. لاجدال في أن نشر هذه الأفكار المتحررة الجديدة، في جريدة صباحية تقرؤها القادرات على القراءة باللغة

١ ـ أنظر: Dorothex Kiuler, "On Our Own & Loving It", Saudi Gazette, Wednesday, September 24, 1986, P. 17.

٢ ـ مقدمة ابن خلدون ص: ٣٧٢، ٣٧٣

الانجليزية س النساء العربيات المتزوجات والأعزاب، سيحدث شيئا من الأثر في نفوسهن، ويؤدي الى اهتزاز القيم عند ضعيفات الارادة والتواقات الى التغير من بينهن. ومما لاشك فيه أن حياة الوحدة التي انتشرت بين اعداد متزايدة من الشابات في الدول الأجنبية، مسئولة الى حد كبير عن انتشار المسكرات والمخدرات، وازدياد جرائم الاغتصاب التي أصبحت تقلق بال النساء وتحد من استمتاعهن بحياة الوحدة، التي أصبحت لها قيمة كبيرة في نفوسهن، ولقد شجع نسق القيم الجديدة في الحياة الاجتماعية السريعة التغير، على استخدام ثمرات التقنين، (التكنولوجيا) في متع ترفيه، استطبيها الكثير من الشباب من الجنسين ، على وجه الخصوص فظهرت معروضات كثيرة تلبي الطلب المتجدد للمتعة في صورة مختلفة، فانتشرت الأفلام وأشرطة الفيديو الزرقاء، وانتشرت المطبوعات المخلة بالآداب، وزاد الاقبال على المسكرات والمخدرات، وراجت سوقها وتنوعت أساليب تهريبها، كما ظهرت أنواع جديدة منها أصبحت أكثر انتشارا. وقد دفع غلاء ثمنها الكثير ممن أدمنوها الى ارتكاب جرائم السرقة، والسطو، والنشل، والنصب، والرشوة، للحصول على المال الذي يمكنهم من التعاطي المستمر، لما أدمنوه من الأفيون والهيروين والماكستون والكوكايين ومختلف أقراص وحبوب الأمفيتامينات، وغير ذلك من المهدئات والمنشطات. وفي هذا النسق القيمي الجديد في الحياة الاجتماعية السريعة التغير، تنتشر ظاهرة البغاء وتتفاقم، وتهتز معايير العلاقات الزوجية التي تنعكس سلبا على استقرار الأسرة وتربية الأطفال في جو مسحوق بانفعالات متناقضة ورغبات متصارعة وطموحات لا تقوى إمكانات كل أسرة على تلبيتها

وان من يتعمق واقع المجتمع العربي منذ حرب ١٩٧٣م يجد أنه في العشر السنوات التالية لسنة الحرب، قد مر بمرحلة ازدهار اقتصادي عظيم، نتيجة رواج بترولي هائل، ونجاح بارز في مشروعات صناعية وزراعية وتجارية ونقلية كبرى، الأمر الذي أحدث طفرة عمرانية، وحركة سكانية برزت في هجرات سكانية ضخمة من مناطق الطرد الخاملة الفقيرة الى مناطق الجذب المزدهرة الغنية. وقد انعكست آثار الازدهار والرواج والنجاح وما صحبها من انفتاح على العالم الغربي انعكاسا ظاهرا على الأحوال الاجتماعية والثقافية في الدول العربية، التي مرت بمرحلة تغير سريع شامل بنسب متفاوتة. فزخر العمران. وبخاصة الحضري بالكماليات وتطلعت نفوس سكانه اليه، كمّاً بالاستكثار منه، وكيفا بوصول الصنائع فيه الى الغاية في التفنن والتأنق والتنوع والاتقان، سواء أكانت محلية أو واردة من الدول الصناعية الأجنبية ونجم عن ذلك العمران الزاخر والخارج عن الحد، فساد أهل المدن الخاصة، من الناحيتين المادية والاقتصادية، والمعنوية والأخلاقية وهذا هو بؤرة اهتمام الباحثين في العلوم الاجتماعية، وبخاصة علم الثقافة الذي يشمل الحضارة وماديتها الكثيرة المتنوعة، وحجر الزاوية في التنظير حول الفساد الذي جلبه التغير الاجتماعي والثقافي الشديد السرعة في العالم العربي في السنوات العشر التي تلت الحرب سنة ١٩٧٣م هو أن فساد النفوس قد كان في قيمها وما دفعت اليه من عادات اجتماعية جديدة، مبنية على أفكار وقيم وافدة أو نادى بها متحررو الفكر ممن فقدوا هويتهم العربية الاسلامية، وانبهروا بالفكر الغربي وقيمه، ووقعوا في شراك التبعية الثقافية، واخذوا يخدمون الغزو الثقافي الأجنبي. من مواقع أعمالهم وبخاصة الفكرية والتعليمية والاعلامية.

ولا يصح إغفال تنظير ابن خلدون الأصيل ، الذي صاغه منذ أكثر من ستة قرون، لتفسير الاختلال الاجتماعي من منظوري الفرد والمجتمع، لأنه ينطبق الى حد كبير على ما حدث في العالم العربي، نتيجة الازدهار الاقتصادي العظيم، والرواج البترولي الهائل، والنجاح البارز في مختلف المشروعات الكبرى الصناعية والزراعية والتجارية فقد قرر بعد استقراء تاريخ العرب والعجم والبربر وما سجل فيه من احداث ووقائع حتى أيامه، أن فساد أهل المدينة «في ذاتهم واحدا واحدا على الخصوص، فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون بألوان الشر في تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها، بحصول لون آخر من ألوانها. فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحيل على تحصيل المعاش من وجهه ومن غير وجهه، وتنصرف النفس الى الفكر في ذلك والغوص عليه واستجماع الحيلة له، فتجدهم أجرياء على الكذب والمغامرة والغش والخلابة والسرقة والفجور في الايمان والربا في البياعات. ثم تجدهم أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه والمراح الحشمة في الخوض فيه وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة. يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعه من العقاب على تلك القبائح، حتى يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله» وقد استمر هذا الحال في السنوات القليلة الماضية حتى أيامنا هذه التي حدث فيها انحسارات اقتصادية متفاوتة في الدول العربية، على غرار ما حدث في الدول الأجنبية المتقدمة. لكن القيم السلبية والعادات الاجتماعية الفاسدة، قد ظلت تحدث آثارها واستمر

الأغنياء في متعهم ولذائذهم التي صارت أعرافا بينهم، وشاعت البطالة بين المتعلمين وانحدر الفقراء الى مستوى غير كريم، زادت فيه الجرائم انتشارا وأصبح الفرد في هذا المجتمع المعقد، الذي استهدف لتنمية شديدة السرعة

في حقبة من الزمن جد قصيرة لا تتعدى الخمسة عشر عاما، يعيش وسط حياة اجتماعية مهتزة اعنف اهتزاز، فالقانون قد أصبح غير كاف في ردعه. والدين صار أفكاراً غير قوية في الضبط الاجتماعي والشك قد تطرق الى كل القيم والمثل وأصبح ما يمارس غير مايدرس، وما يجري فعله يخالف ما تبث الدعوة الفاضلة له، وتنوعت الآراء، وتعددت الاتجاهات وزاد ضغط الغزو الثقافي الأجنبي، وطغت الحضارة بمادياتها المغرية على ما كان سائدا من قيم روحية اخذت تضغط تدريجيا وتؤول الى الزوال.

في هذا الجو الفاسد يلجأ العقلاء من الدعاة الى هداية الناس لا ببث العنف بينهم، ولكن بالأسوة الحسنة، والكلمة الطيبة، والحكمة والموعظة الحسنة، فاذا زاد الفساد وألهت الناس الحياة يبغونها عوجا، فيلعمل العقلاء بالتوجيه القرآني الحكيم لقوله عز من قائل ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم﴾[1] وقد شرحه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه بقوله: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى اذا رأيت شحاً مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العامة، فان من ورائكم أياماً، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا

١ ـ سورة المائدة. الآية: ١٠٥

يعملون مثل عملكم. ولما سأله الصحابة: «أجر خمسين منا او منهم» قال: بل أجر خمسين منكم[1] ففي هذه الأيام الصعبة: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾[2] وعندما تهتز المعايير، ويسير أغلب الناس في المجتمع على هدى من هواهم، يتفشى الظلم ويكثر العدوان وتزداد الجرائم والآثام، ويشتد العبء على من يقومون بمكافحتها بالسهر على حفظ الأمن، وتعقب الخارجين على القانون والقاء القبض عليهم، وبمقاضاتهم والحكم على المدانين منهم بالعقوبات المنصوص عليها في القانون، ثم بتنفيذ العقوبات فيهم، رقابة أو تغريما أو حبسا أو سجنا أو حرمانا من حق الحياة، وفي ذلك يصدق قول الخليفة عمر بن عبدالعزيز: «تجد للناس أقضية بقدر ما يحدثون من الفجور»[3]

يتبين مما سبق أن البشر مخلوقات تسعى بشتى الصور لتحقيق غايات متعددة ومتنوعة والذي يدفعها للسعي بجد وعزيمة، ما يترسب في أنفسهم من قيم مكتسبة خلال تنشئتهم الاجتماعية من جهة، وقيم مستخلصة مباشرة من خبراتهم في الحياة من جهة أخرى. وبذلك تصبح القيم جزءاً لا يتجزأ من حقائق الحياة الاجتماعية والعالم الاجتماعي الذي يعنى بتنمية المجتمع تنمية شاملة متكاملة، لا يستطيع ذلك بنجاح مالم يعن بالأحوال والظروف

---

١ القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٩٨ ج ٦، ص؛ ٣٤٣

٢ سورة التوبة؛ الآية: ٦٧

٣ ـ نقلا عن الشيخ أحمد حسن الباقوري، (حديث الصباح) البرنامج العام، اذاعة جمهورية مصر العربية

التي تظهر فيها القيم غير المقبول لدى مجموعات أو فئات معينة من المجتمع، وبمدي تأثير هذه القيم في سلوكهم الاجتماعي وعلاقاتهم بعضهم ببعض، حتى يمكن تبين كيفية تعديلها أو تغييرها، في ضوء حقيقة أنها متغلغلة في النفوس، وهنا تظهر الحكمة الالٰهية في قول الله تعالى: ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1].

ومما لا جدال فيه ان الالتجاء الى كتاب الله العليم الحكيم، وتفهمه والتمسك بقيمه، عن ايمان بها ويقين ينفعها دنيا وأخرى، هو خير مغير لما في النفوس من قيم سالبة، تفسد على الناس معيشتهم وتكدر صفو حياتهم.

---

١ ـ سورة الرعد. الآية: ١١

المراجـــــع

١ ـ الجامع لأحكام القرآن. القرطبي أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الجزء السادس. مطبعة دار الكتب المصرية: القاهرة. ١٣٩٨هـ.

٢ ـ الجريمة والمجتمع: بحوث في علم الاجماع الجنائي. الدكتورة سامية حسن الساعاتي. مكتبة الانجلو المصرية: القاهرة. ١٩٨٢م.

٣ ـ القيم والعادات الاجتماعية. الدكتورة فوزية دياب. دار النهضة العربية: بيروت. ١٩٨٠م.

٤ ـ مجمع الأمثال. الميداني. أبو الفضل أحمد النيسابوري. المطبعة الخيرية: القاهرة. ١٣١٠هـ.

٥ ـ المجمع الوسيط. مجمع اللغة العربية: القاهرة. ١٩٦١م.

٦ ـ مقدمة العلامة ابن خلدون. المكتبة التجارية الكبرى: القاهرة.